

الفصل العاشر

الاهتمام أو الشغف

فى آخر حديث ألقته على مسامعكم عالجت موضوع الميول الفطرية لدى الطالب التى تحدث رد فعل بطرق محددة لها مواصفات خاصة عند ملاقات الحوافز المختلفة ، أو الظروف المثيرة .

وفى الحقيقة انصب كلامى على غرائز الطالب .

يبد أن بعض المواقف تستدعى غرائز خاصة منذ البداية والبعض الآخر يخفق فى ذلك حتى تنتظم الارتباطات المناسبة أثناء مرحلة تدريب الشخص . فأمما المجموعة الأولى من المواقف فنقول عنها إنها مثار اهتمام فى ذاتها أصلا .

وأما المجموعة الثانية من المواقف فنقول عنها إنها ليست مثار اهتمام فطرى ، وان الاهتمام أو الشغف بها لا بد وأن يكتسب أولا .

ولعل موضوع الاهتمام قد ظفر بعناية واهتمام الكتاب البيداجوجيين أكثر من أى موضوع آخر .

إنه التابع الطبيعى للغرائز التى شرحناها أخيرا جدا ، وهو لذلك مناسب جدا لأن يكون الموضوع التالى الذى تتناوله .

وحيث ان الاهتمام فطرى فى بعض الأمور أو الأشياء ، ومكتسب فى بعضها الآخر بمجهود مقصود اصطناعى ، فيتعين على المعلم أن يعرف أى الاهتمامات يكون فطريا ؛ لأننا - كما سنرى حالا - سنجد أن

الموضوعات الأخرى التى يكتسب فيها الاهتمام أو الشغف اصطناعيا لا يمكن أن تصبح كذلك الا اذا ارتبطت أولا بواحد أو أكثر من تلك الاهتمامات الفطرية .

ان الاهتمامات الفطرية للأطفال تقع كلها فى دائرة الحس والحواس . فالأشياء الجديدة التى تلفت النظر والأصوات المستحدثة التى تسمع ، وبخاصة اذا اقترن المنظر بحركة ، والصوت بعنف طحوم ، تحول الانتباه دائما من المفاهيم المجردة للأشياء التى تتم عن طريق الكلام .

فحركات اعوجاج الوجه التى تصدر عن جوفى ، وكرات البصاق التى يستعد تومى لتفعلها ، ومعركة الكلاب فى الشارع — أو الأصوات البعيدة لأجراس المطافى — هذه هى العوامل المنافسة للمعلم الذى يتعين عليه أن يلاقىها بكل قواه باستمرار لكى يركز اهتمام طلابه وشغفهم فيه أو فيما يعلمهم اياه .

ان الطفل — دائما — يعطى انتباهها أكثر لما يفعله المعلم — مما يقوله المعلم نفسه .

فأثناء إجراء التجارب ، أو عندما يرسم المعلم شيئا على السبورة يخيم الهدوء على الأطفال ويقيد انتباههم .

لقد رأيت قاعة ممتلئة بطلاب الجامعة يخيم عليها الصمت والهدوء فجأة لكى يشاهدوا أستاذهم وهو يربط فتلة من الخيط حول عصا كان يزعم استعمالها فى تجربة ، ثم لا يلبثوا أن يتمللوا ويهمهوا ويضعفوا بمجرد أن يبدأ فى شرح التجربة .

ولقد أخبرتنى سيدة أنها ذات يوم فى أثناء الدرس كانت فى غاية الامتنان ؛ لأنها استطاعت أن تسيطر سيطرة كاملة على انتباه أحد الصغار

الذين وكل إليها أمرهم ، وظلت عيناه مثبتتين على وجهها لا تبغيان عنه حولا . ولكنه قال لها بعد انتهاء فترة الدرس « لقد كنت أنظر اليك طوال الوقت ولم يتحرك فكك الأعلى ولا مرة » .

تلك كانت الحقيقة الوحيدة التي عرفها .

فالكائنات الحية اذن ، والأشياء المتحركة والأشياء التي تتصف بالخطر أو ينبثق منها الدم — الأشياء ذات الصبغة المسرحية — هذه كلها هي الأشياء التي تثير الاهتمام الفطري للطفولة — ولا شيء سواها تقريبا .
ومعلم الأطفال الصغار ينبغي أن يجارى طلابه باللجوء المستمر لهذه الأشياء ليظل اهتمامهم موصولا وشغفهم نابضا ، حتى تنفج لديهم اهتمامات أخرى مكتسبة ومصطنعة .

ينبغي اذن أن يقوم التعليم على موضوعات حية ملموسة محسوسة ، وأن ينتهج نمطا تجريبيا ويسلك سبيلا قصصيا .
فالرسم على السبورة ، وسرد القصص ، ينبغي أن يفسح لهما أكثر مجال في التعليم ، وأن يلجأ المعلم إليهما باستمرار .

بيد أن هذه الطرق لا تغطي الا الخطوات الأولى فقط، ولا تضيء بالمعلم ولا المتعلم الى نهاية الشوط وانما تهديهما سواء السبيل وتدفع بهما قدما على أول الدرب .

هل نستطيع الآن أن نصوغ قانونا عاما نربط به الاهتمامات المصطنعة والمكتسبة نفسها بتلك الاهتمامات الفطرية المبكرة التي يجلبها الطفل معه الى المدرسة ؟

من حسن الحظ أننا نستطيع أن نفعل ذلك .

فهناك قانون بسيط جدا يربط الاهتمامات المكتسبة بالاهتمامات الفطرية برباط وثيق .

هذا القانون هو :

أى شيء أو موضوع لا يثير الاهتمام والشغف فى حد ذاته يمكن أن يصبح مثار الاهتمام أو الشغف بأن يرتبط بشيء أو موضوع يكون الاهتمام به أو الشغف به قائما بالفعل وموجودا أصلا .

عندئذ ينمو الشيطان المترابطان معا ؛ فالجزء مثار الاهتمام أو الشغف يخلق صفته وكيفه على الكل، وبذلك تقترض الأشياء التى لم تكن مثار اهتمام أو شغف فى ذاتها وحسب ، اهتماما أو شغفا يصبح فى فاعليته وقوته مثل أى موضوع أو شيء آخر مثار اهتمام فطرى .

والعجيب فى الأمر أن المدين لا يفقر الدائن ، والمقترض لا يفلس المقترض .

فاجتماع الشيين معا يجعلهما أكثر إثارة للاهتمام والشغف مما كان عليه الأمر عندما اقررد الجزء الأصلى وحده بالمجال . هنا يؤكد الدخيل الأصيل ولا يخلخله ويقويه ولا يضعفه .

وهذا من أعظم البراهين الساطعة دلالة على مدى تطبيق قانون تداعى الأفكار وترباطها فى علم النفس .

إن الفكرة تلقح غيرها وتغذيها بما تحمله فى طياتها من اهتمام انفعالى عندما ترتبط الفكرتان معا فى أى نوع من أنواع التفكير الكلى .

وحيث إنه لا يوجد حد للارتباطات المتنوعة التى يمكن أن تدخل فيها وتلقحها وتغذيها فكرة محملة بالاهتمام والشغف ، فانا نستطيع أن تبين الطرق العديدة التى يمكن أن يشتق منها الاهتمام أو الشغف .

وستفهمون هذه العبارة المجردة بسهولة — اذا ضربت لكم مثلا من أكثر الأمثلة المحسوسة شيوعا — ألا وهو الاهتمام الذى ينفى على الأشياء بسبب ارتباطها بمصلحتنا الشخصية .

إن أكثر الاهتمامات النظرية أهمية لدى الشخص هو نفسه وما تملكه يده .

وبناء عليه فإنا نلمس أنه بمجرد أن يرتبط الشيء بمقدرات أو ممتلكات النفس ، فإنه يصبح فوراً محملاً بالاهتمام والشغف .

أمر الطفل كعبه وأقلامه وبقية أدواته ، ثم هبها له واجعلها ملكاً خالصاً له ، ولاحظ النور الجديد الذي يغرر وجهه مباشرة ، والبريق الذي يلتصق في عينيه عندئذ .

ستتغير نظرتة حيالها ويحرص عليها حرصاً مختلفاً كلياً عما كانت الحال عليه وقت الاستعارة .

وفي حياة الكبار : ما الذي يحدث في خضم الحياة بدواعيها ومشكلاتها ؟ يكدح الشخص ويقاسى في تجارته أو مهنته أو عمله ككسب لا يطلق في حد ذاته ، ولكنه يحتمله ويمضى فيه باهتمام بالغ يملك عليه كل حواسه ويرهقه من أمره عسراً لا لشيء إلا لأنه يعلم أنه مرتبط بصيره الشخصي بمقدراته وممتلكاته .

هل يوجد شيء أكثر موثراً لا يثير اهتماماً ولا شغفاً مثل جدول مواعيد القطارات ؟

ولكن أين تجد شيئاً أكثر إثارة لاهتمامك إذا كنت تنوى السفر بحيث لا تستطيع أن تعرف قطارك وموعد قيامه إلا بوساطته ؟ في مثل هذه الأوقات يمتص جدول مواعيد القطارات اهتمام المرء كله . أما الاهتمام به فمرتبط فقط بمصلحتك الشخصية .

من كل تلك الحقائق ينبثق برنامج بسيط مجرد يتبعه المعلم لكي يحفظ انتباه الطفل .

ابداً على مسار اهتماماته الفطرية ، وقدم له أشياء أو موضوعات لها ارتباط مباشر بتلك الاهتمامات .

إن الطرق المتبعة في رياض الأطفال — دراسة الأشياء المحسوسة المنسوبة واستعمال السبورة والأشغال اليدوية ، كلها تؤكد هذا الجانب وتؤكد وتعتز به .

والمدارس التي تسود فيها هذه الطرق هي المدارس التي تسلس قيادتها ويتيسر فيها النظام ، حيث لا يرتفع فيها صوت للمعلم بالزجر أو الأمر أو النهي ، ولا يلجأ فيها المعلم إلى حيل تهديدية لصيانة وحفظ انتباه الطفل .
ثانياً — خطوة خطوة اربط بهذه الأشياء الأولية والخبرات المبكرة الأشياء والأفكار والموضوعات التي تريد أن تلقنها للطفل أو تدخلها في عقله .

اربط الجديد بالقديم بطريقة طبيعية اخبارية حتى يشيع الاهتمام — وهو ينسكب وينساب من قطة لأخرى — في أرجاء كل الجهاز الذي ينتظم موضوعات التفكير .

هذا هو التعبير المجرد . ومن الناحية المجردة لا يوجد شيء سهل فهمه أكثر من ذلك .

إن الصعوبة تكمن في تحقيق القاعدة واكتمالها لأن الفرق بين مدرس فاشط قادر على إثارة الاهتمام والشغف ومدرس خامل ممل ، يربض في شيء أكثر من الابتكارية التي يستطيع بها أحدهما أن يكون وسيطاً لهذه الارتباطات والدواعي ، والسامة والملل التي تصدر عن ثانيهما وهو يستكشف هذه التحولات التي ينتهجها الآخر .

فهناك معلم له عقل يلمع ويرق بنقاط الارتباط والتداعي بين الدرس

الجديد وبين ظروف الخبرات الأخرى للأطقال، فحديثه يزخر بالقصص والحكايات والنوادر والذكريات على حين يتحرك مكوك الاهتمام الى الأمام والى الوراء وهو ينسج القديم والجديد معا بطريقة جذابة مسلية تفيض بالحيوية ، وتتألق بالشغف ، وتنبض بالحياة .

وهناك معلم آخر يفتقر الى هذه الخصوبة الابتكارية الخلاقة — درسه جامد مجذب ثقيل الوطأة . هذا هو المنى السيكولوجي لقانون الأبهة أو الاستعداد أو التهيؤ عند هربارت — بالتقاس الى كل درس وربط الجديد بالقديم . هذا هو المنى السيكولوجي لطريقة التركيز — برمتها في الدراسات — التي سبغتم بشأنها كلاما كثيرا في الأوقات الأخيرة .

عندما تدرس مواد الجغرافيا والتاريخ والحساب ككل وتشير كل منها الى الأخرى — وترجع هذه الى تلك وتستعين بها وتستعير منها ما الذي يحدث أنه يصبح لديك مجموعة ملذة ومفيدة من العمليات والسبل في كل هذه المواد — في وسائلها وغاياتها .

فلذا أرمت — اخذ — أن تتأكد من إثارة الاهتمام والشغف في طلابك فهناك طريقة واحدة لأداء ذلك ، وهي أن تتأكد من أن لديهم في عقولهم شيئا يهتمون به ويلتفتون اليه ويمنون به عندما تبدأ في الكلام .

هذا الشيء قد لا يتكون من شيء سوى حشد من الأفكار السائفة التي تثير الاهتمام والشغف في حد ذاتها ، ولها من طبيعتها ما يجعل الموضوعات الجديدة الواضحة التي تفرضا تمتشق فيها وتتشكل معها في مجموعها ككلا منظما منسقا مترابطا مع بعضه ترابطا منطقيا .

ومن حسن الحظ أن أى نوع — تحريا — من الارتباط كاف لدفع عجلة الاهتمام الى الأمام .

— ما أكثر المعونة التي تقدمها لنا حربنا مع الفيليين — في الوقت الحاضر
— في تدريس الجغرافيا .

ولكن قبل نشوب حربنا مع الفيليين — كان في إمكانك أن تسأل
الأطفال عما اذا كانوا يستعملون الفلفل الأسود عندما يأكلون البيض ؟
ومن أين يظنون أننا نستورد الفلفل الأسود ؟

أو اسألهم عما اذا كان الزجاج حجرا ، وان لم يكن حجرا فماذا يكون ؟
ثم دعهم يعرفوا كيف يتكون الأحجار ، وكيف يصنع الزجاج .

ان حلقات الربط الخارجى ستنتفع تماما مثل الروابط الأكثر عمقا
والأكثر منطقية .

ولكن بمجرد أن ينسكب الاهتمام أو الشغف على موضوع ما فهو
في الغالب يظل لاصقا به وعالقا به دائما .

فمكتسباتنا ومعلوماتنا تصبح — على نحو ما — أجزاء من حياتنا
الشخصية رويدا رويدا ، مع تكاثر الارتباطات وألوان التداعى المتشابكة
ونمو وانبثاق عادات الايلاف مع الجديد وممارسته بتوحيد الجهاز الكلى
لموضوعات تفكيرنا — اذ يصبح معظمه مثار اهتمام وشغف بالقياس الى
بعض أغراضنا والى درجة ما .

إن كل اهتمام من اهتمامات الشخص الكبير — تقريبا — اهتمام
مصطنع ، محصل ، مكتسب الى درجة كبيرة . لقد تم غرس كل اهتمام
منها وبنائه ببطء . إن معظم موضوعات اهتماماتنا المهنية — في طبيعتها
الأصلية — منفرة بل وكريهة . ولكن لكونها مرتبطة بموضوعات مثيرة
فطريا — كمستقبلنا الشخصى ومسئولياتنا الاجتماعية بقوة العادة المتعوده
المتأصلة ، فانها تصبح الأشياء الوحيدة التى نغنى بها عناية عميقة ونكرس
لها جهدنا واهتمامنا فى أواسط العمر .

ولكن في كل تلك الحالات نجد أن عمليتي الانتشار والتوحيد لم تخضعا لشيء سوى القوانين والمبادئ التي وضعناها في مطلع هذا الحديث .

لو أننا استطعنا أن نذكر لبرهة وجيزة كل تاريخ حياتنا الشخصي لرأينا أن مثلنا العليا المهنية والغيرة والحماسة والشهامة — التي بمثلها في نفوسنا وأوحت إلينا بها — مردها إلى شيء واحد فقط — ولا شيء سواه — ألا وهو النمو البطيء المتزايد من موضوع عقلي إلى غيره الذي يمكن تتبعه إلى الوراء من نقطة لأخرى حتى يصل إلى اللحظة التي كنا فيها في مدرسة رياض الأطفال أو في قاعة الدرس عندما استمعنا إلى قصة تحكى ، أو رأينا شيئا يعرض على أنظارنا ، أو شاهدنا عملية تجري أمامنا ، أو تجربة تؤدي على مرأى منا . وانها عرفتنا بالموضوع الجديد وقربته إلى أذهاننا ، وأثارت اهتمامنا وشغفنا به ، بأن ربطت بينه وبين أحد اهتماماتنا الفطرية الموجودة أصلا فينا .

هذا الاهتمام الذي انتشر وشاع وذاع في أرجاء جهازنا كله انبثق من هذا الحدث الصغير الذي يبدو لنا الآن عديم الأهمية ، بحيث إنه أصبح نسيا .

فكما أن النحل في تكتله يلتصق ببعضه ببعض في تجمعات أو طبقات — حتى تصل المجموعة التي تقبض بأرجلها على العنق الذي يتعلق به ثول النحل فكذلك الأمر بالقياس إلى موضوعات التفكير — يلتصق بعضها ببعض الآخر ويرتبط بحلقات الترابط والتداعي — ولكن المصدر الأصلي للاهتمام أو الشغف فيها كلها — هو الاهتمام الفطري الذي انبثق من أولها وحازه أول واحد فيها .